المحاضرة الخامسة

الملاحم الدينية

وهي ملاحم تتسم برمزيتها وببعدها الإنساني الهادف ومن هذه الملاحم الكوميديا الإلهية لدانتي

1- الكوميديا الإلهية(La divina commedia):

وهي للشاعر الإيطالي دانتي(1231-1265) وقد سميت بادئ الأمر الكوميديا، ثم أضاف لها صاحبها كلمة (الإلهية)، وهي تختلف كثيرا عن ملحمتي هوميروس، لأن موضوعها ديني صرف، عبر رحلة إلى العالم الآخر، وإن كان دانتي اجتهد في تقريب هذا العالم إلى العالم الواقعي زمن العصور الوسطى، بحروبه، وتقاليده، وأخطائه... والهدف من وراء (الكوميديا الإلهية) كما يذهب دانتي: هو حال الأرواح بعد الموت، وفي معناه الرمزي يعالج حجم هذا العالم الذي نجوبه، كأننا مسافرون...فموضوع هذا العمل الأدبي هو الإنسان بما فيه من فضائل ورذائل، بوصفه خاضعا للعدل الإلهي المثيب المعاقب [1]

2. الفردوس المفقود(The Paradise Lost):

وهي للشاعر الإنجليزي ملتون(1608 1674) وقد نشرت هذه الملحمة عام1667 ، وهي في 12 نشيدا تتحدث عن خروج آدم من الجنة عن طريق الإغواء والشخصية الأساسية في هذه الملحمة هي شخصية الشيطان المتمرد العاصي، واستعلائه الشيطان وتمرده في هذه الملحمة، أشياء غير ممقوتة من وجهة نظر دانتي.

وبمرور الزمن عرفت الملاحم تطورا تدريجيا انتقلت شخصياتها من الشخصيات أسطورية إلى شخصيات واقعية رمزية مثل ما نجده في الملحمة الإلهية. ثم اختفت شيئا فشيئا الملاحم الشعرية وحلت محلها الملاحم النثرية، مثل مغامرات تليماك (Les aventures de Télémaque) للكاتب الفرنسي فينيلون(1651-1699) وظهرت هذه الملحمة أول مرة في باريس،1699 .[2]

وفي العصر الحديث حالت المدينة الحاضلرة وتقدم العقل البشر والنظم الديمقراطية دون السماح بظهور الملاحم في عصرنا حتى أن محاولة خلقها تعد بمثابة بعث الموتى، ووجود خصائص الملاحم في عمل أدبيمعاصر، يعد مرضا فنيا يجب استئصاله.[3]

2- الشعر الملحمي عند العرب

المتتبع للشعر العربي، يجده خاليا من الشعر القصصي الذي يقوم بنظم الملاحم الطويلة الذي يقوم بنظم الملاحم الطويلة، وذلك لأسباب كثيرة، منها أن الجاهلية، كانت بعيدة عن أن تفهم الوحدة القومية، والعاطفة الوطنية، وعن تشغل أفكارها أمور وهمية ومشاهد خيالية لا توافق نزعتها الواقعية، وخوارق إلهية لا توافق ضعف عقيدتها الدينية؛ فهي ضعيفة العقيدة، لا يربطها سلطان، ولا ينازعها ارضها أجنبي؛ فضلا عن أن الحياة البدوية لم تكن لتأتلف مع الجيوش المنظمة والزحف بها جرارة، اذ كانت حروبهم غزوات وغارات. زد على ذلك كله ان لشاعر البدوي حر، متقلب قصير مدى الخيال والتخيل، لا يكاد يقوى على نظم قصيدة في موضوع واحد، فكيف يقوى على نظم ملحمة طويلة واسعة الأصول والفروع؟

ثم إنه كان ينظم عن دافع التأثر والعاطفة لا عن رغبة في الإخبار لأجل الإخبار البعيد عن الذات. فهو خطيب محام لا قصاص. والبدوي لا ينظر إلى الأشياء نظرا شاملا بل تغلب عليه الفطرة. والطبع، فيقف عند كل ما يحركه من غير ما رابط بين السابق واللاحق ولا تتسلل، فقصر كل ذلك نفسه، فلم يأتي بالقصائد الوافية.

وعندما تطور المجتمع العربي، في عهود ما بعد الجاهلية، انصرف الناس الى العلوم، وانجرفوا في التيارات الفكرية، وتقيد الشعراء بعمود الشعر، يقلد بعضهم بعضا، واستمالتهم الصنعة أكثر مما استمالهم الابتكار الفني؛ ولهذا لم يجدوا أنفسهم في حاجة إلى الانطلاق في الأجواء التي انطلق فيها اليونان وغيرهم من الشعوب التي احتك العرب بحضارتها وثقافتها.

وإن خلا الأدب العربي من الملاحم، فإنه لا يخلو من قصائد فيها من النفس الملحمي الشيء الكثير، وفيها من سرد الأخبار ووقائع الحروب ما يذكر بأسلوب الملاحم؛ ومن ذلك بعض شعر عنترة وعمرو بن كلثوم والمتنبي... وغيرهم

3. نموذج ملحمي: الفردوس المفقود لملتن: ملحمة شعرية في اثني عشر جزءا موضوعها ثورة الملائكة وتمردهم، ثم خلق الانسان وشفاعة المسيح له، ثم إيقاع الشيطان بالإنسان وعصيان آدم وحواء وخروجهما من الجنة

(مشهد من مشاهد ذلك الفردوس، وفيه بطلاه آدم وحواء أمام مشهد الطبيعة الفتانة، قبل أن يغويهما الشيطان.)

وأقبل المساء الساكن، وانتشر الشفق في لون الرماد، فلف كل الكائنات بثوبه الهادئ

وساد الصمت وأوى الحيوان والطير

إلى معشوشب المخادع فاستكان الطير في أعشاشه،

وراح في نعاس إلا البلبل اليقظان،

طفق يغرد طوال الليل بأناشيد الغزل،

وأخذ آدم وحواء يتحدثان قبل أن يأويا إلى مخدعيهما

فقالت حواء:

حلوة أنفاس الصباح ! هذا الإصباح ما أحلاه

مع البواكير من فاتن الطير ! وما أجمل الشمس

أول مانشرت-فوق هذه الأرض الحبيبة- أشعتها الشرقية

على العشب والثمر والزهر

وهي تتلألأ بقطرات الندى، ما أمتع عطر الأرض الخصيبة

بعد الرذاذ الرضي، وماأحلى قدوم المساء الجميل، ثم مأجمل الليل الساكن

بطيره هذا الوقور، وهذا القمر الجميل ...